الرقيب والفيلسوف

هتلر وفيشته

ما بينهما من شبه واختلاف

بقلم ابراهيم ابراهيم يوسف

ان المذاهب السياسية والاقتصادية التي نادى بها الفيلسوف فيشته (Fichte) سنة ١٧٩٥ ، تشبه من حيث نزعتها الى « الاشتراكية الوطنية » مبادئ هتلر التي جاء بها فيما بعد الحرب العالمية على أن « اشتراكية » هتلر مركزة في تلك العبارة البارزة من برنامجه ، التي تنص على « اننا نطالب بجعل كل المؤسسات التي في حوزة الشركات ملكاً للدولة » ، بينما نجد « اشتراكية » فيشته قائمة على وجوب استيلاء الدولة على أهم مؤسسات الانتاج ووسائله

ويقول هتلر : « اننا نطالب باصلاح الاراضي ووجوب وضع قانون لالغاء ملكية الارض ، وما ذلك الا لاستغلالها استغلالاً جماعياً يتفق وحاجاتنا الوطنية » . وقال فيشته مثل ذلك ولكن في غير ابهام ، اذ دعا الى وجوب تقسيم الاراضي تقسيماً عادلاً

وكلاهما يظاهر « اشتراكية » غير التي وصل اليها كارل ماركس (K. Marx) القائل بتحريم الملكية . فهما يخولان لكل فرد ان يملك من الارض قدراً لا يزيد عما في وسعه ان يفلحه . واشتراكية هتلر الوطنية تأبى على الرأسماليين استبقاء ملكية ما استحوذوا عليه عن طريق المضاربة (يشير الى المضاربات في أعمال البورصة) ، رغبة منه في وضع حد لتكدس الثروة في أيدي أقلية صغيرة . وأدق من هذا رأي فيشته القائل بحق كل فرد في الملكية على شريطة أن يكون هذا الحق مكفولاً لكل مواطن

كذلك نرى فكرة « وجوب اتاحة عمل لكل فرد ، وحق حصوله على عمل » ، ماثلة عند كل منهما . وكذلك يتفق كلاهما في اعتبار الانانية مصدر الخبائث ، ويجب القضاء عليها . ولكن الانانية عند هتلر تتمثل في « اليهودية » القائمة على انواع المضاربة المالية والتجارية . بينما نراها عند فيشته ممثلة في مختلف انواع « شهوة الانتفاع الذاتي »

كذلك يتمثل برنامج كل من هتلر وفيشته في تقدير النفع العام ، وانهُ مفضل على النفع الذاتي . غير ان النفع العام عند هتلر هو ما يعود على الدولة ، بينما هو عند فيشته النفع الذي يعود على الشعب

ولعل أجلى تشابه بين الاثنين يتجسم في مقترحاتهما الاقتصادية الخاصة « بسياسة النقد » . ففيشته يقول بوجوب تعميم عملة من مادة لا قيمة لها ، بينما يقول هتلر بتداول عملة قيمتها الاسمية منحطة ، على ان الرأي الغالب اليوم في الدولة الالمانية هو رأي معارضه الدكتور شاخت مدير بنك الدولة — ويمثل هذه العملة التي لا رصيد لها تبقى المانيا غير خاضعة للعالم الاقتصادي ومؤثرات السوق العالمية . ويقول الهر فيدر (Feder) مستشار هتلر في الامور الاقتصادية « انهُ يخاف في فكرة العملة هذه التي اقترحها كل خطر ، اذ توقع ان لا بد للدول الاخرى من مجاراة المانيا في هذا العمل . وبهذا يتم التقارب بينها ويقوم على اساس وطني جديد ، غير ذلك الاساس الذي اوجدتهُ البورجوازية » . أما فيشته فلم يرَ حاجة الى إخفاء غرضه وصارح بوجوب انفصال المانيا انفصالاً اقتصاديًّا تامًّا عن بقية الدول ، كما تصبح « دولة تجارية قائمة بذاتها » .

ومما تقدم يتبين مبلغ التشابه في تفكير كل من هتلر وفيشته ، غير ان « اشتراكية » هتلر ليست الاّ مجرد « تمويه » ، الغرض منهُ استدراج الفلاحين السذج لقبول مبادىء هتلر ، الذي يتعاون سرًّا مع « الرأسماليين » الذين نعتهم من قبل باللصوص ، ولم يبق هذا الامر بخافٍ على احد من حزبه . اما « اشتراكية » فيشته فلها اسس دعمت بنتائج الاحوال التي احاطت بشخصيته منذ نشأته . فقد انحدر من عائلة اشتغل افرادها بالحياكة . وبدأ بالعمل لكسب قوته وهو لم يتجاوز بعد سن الطفل فاشتغل برعي الأوز ، ثم أصبح فيما بعد مدرساً متنقلاً بين المنازل . وأتاحت له حياته هذه ان يتفهم « الاشتراكية » تفهماً عمليًّا فاصبحت في دمه ، ولم تكن هنالك قوة تستطيع ان تمحو أثر تجاربه من ذهنه . ثم هو الى جانب ذلك قد امتدح الثورة الفرنسية وناصب أمراء المانيا العداء ، بينما هتلر لا زال على زلفه اليهم رغم سقوطهم عن عروشهم

ولقد كان فيشته ميالاً كل الميل الى « الديمقراطية » ، بينما هتلر يبغضها كل البغض ، وينعتها « بالالمانية الوضيعة » . وفيما كان فيشته يحس ويؤمن « بمبدأ حق التساوي » ، لا يتحرج هتلر عن ان يهزأ بهذا المبدأ . ومن هذا كله يتضح لنا ان « اشتراكية » فيشته كانت عندهُ بمثابة العقيدة وليست مجرد أوضاع اقتضاها التنميق في البرنامج لأغراض معيّنة

ولا يقل التفاوت بين « وطنية » فيشته « ووطنية » هتلر عما لمسناهُ من تفاوت بين اشتراكية كل من الرجلين ، مع الاعتراف بوجود تشابه ظاهري في تفكيرهما السياسي ، وتشابه أشد منهُ في التفكير الاقتصادي . فكل من فيشته وهتلر يسعى الى الحرب مدفوعاً في ذلك بعوامل متشابهة هي هزيمة سابقة في ميدان الحرب ، وصلح شائن ، وضغط عدو يزيد على المانيا في العدد

والمجد . وكان نيتشه [illegible] يرى في [illegible] المجهول [illegible] وما لبث ان ظهر واسيء [illegible] فوق [illegible] ملاحظة [illegible] في ذلك بيانا

وقد [illegible] الناس [illegible] تتفق [illegible] الحرب عند الاول وتغيره عند الثاني [illegible] نابليون ، ولكنه لا [illegible] المنتصر [illegible] وكان يكره [illegible] الدكتاتور حتى انه يحتقر شخص الدكتاتور الايطالي ، ولكنه لا [illegible] . وقد ذكر ذلك في كثير من خطبه

وكان نيتشه يعتبر نابليون ليس فقط عدواً لالمانيا ؛ بل هو عدو العالم اجمع ، وفرنسا في المقدمة . لان نابليون ، في عرفه ، لا يهتم بشيء سوى شخصه ومستقبله الفاني . فالبشرية كافة ، في عين نابليون ، كأجمعها وبيئته ، مجاميع من الناس لا ارادة لها وله حق التصرف فيهم كيفما شاء . وكانت ارادته هي القانون ، وكان لا يأبه للحق ، ولكنه دائم التفكير في القوة . وكان يريدها لنفسه لا لغيره ، ويريدها الى ما شاء الله . وهكذا حول نابليون بفرنسا وبالشعب الذي جنى الثورة وقام بها . وقد استعان نابليون بهذه القوة في الحرب من أجل الحرية فبلغ من المجد أعظمه ، ولكنه تخبط في السير ، اذ لم يتعود الحرية بعد ، فضل الطريق وسده بالاشلاء . وعلى الرغم من ان الحرية كانت تنقص الزعيم نابليون فقد عمد متعمداً الى مجادلتها ، عوضاً عن ان يعيد اقامتها مرة اخرى . كذلك عمل على ان يجعل من مواطنيه مداهنين أذلاء ، فأساء التصرف ليستأسد » . وكذلك حال دون بزوغ يوم الحكم الصحيح بعد ان انبثق على باريس فجره . ذلك اليوم الذي كان قدر لان يسود فيه المنطق فينتصر الحق وتتغلب كرامة الفرد وتنتصر قوة الضمير الانساني الحي ، وهو يوم تام نضوج ثمار الثورة . ولكنه فرض على الناس أن تضحي بكل شيء ، الا « بمقترحات نابليون التابعة في تقلباته لنزواته » اما انه يضحي هو بمقترحاته هذه فأمر لا يليق « بنيه » المكذوب ، « فضحى بحرية الجنس البشري ، وعن منهم ، واضطر مثلي وكل من على شاكلتي في تهم الدائم الى ان يتبط فرحاً حينا يقدم نفسه قرباناً للنار المقدسة » — هذا هو قول نيتشه

ومن ذلك كله يتضح لنا الآن مقدار الهوة العميقة والتباعد الشاسع بين اشتراكية نيتشه الوطنية وبين الفاشزم الالماني او الاشتراكية الوطنية التي دعا اليها هتلر

وليس من شأن ذلك التباعد ان يحجب عنا احساس نيتشه الوطني الحاد ، ولا دعوته الى الحرب . ولكن نيتشه يعني الكفاح الفكري والخلقي أكثر مما يعني الحرب المادية لمجرد الاخذ بالثأر او التحرر الشكلي . ثم هو يعني ذلك الانتصار الاعلى : انتصار الحرية على القوة . وهو يعتقد ان هذه هي رسالة الالمان من دون الذين انتصر عليهم نابليون . ولكن كيف ينال ذلك ؟

يقول فيشته : « ألم تعمل فرنسا وتجهد لمحاربة هذا الغرض الاسمى بأقصى ما استطاعت من قوة ؟ » لا شك انها فعلت ذلك . ولكن — كما يقول فيشته — دون ان تصل الى بغيتها ؛ لان الالمان كانوا يقظين . وهكذا قضي على تلك الخرافة . لان العصر لم يكن قد تهيأ بعد للحرية » ، « فرجل الفكر الحر لا بد ان يكون في عصبيته متحرراً ، والدولة الكاملة لا تكون الا بأناس كُمّل »

والآن ما هو مركز المانيا ؟ ان فيشته يشير الى « كانت » (Kant) وما له من « فلسفة جديدة » تهيء وتنشيء اناساً احراراً حقاً . ولم تكن فلسفة « كانت » الجديدة هذه نتاج الصدفة ، بل انها نمت وترعرعت على مدى الايام ، منبثقة من طبيعة الالمان وخلقهم . ومن ثمّ ادرك بالعقل ما كان مستقراً في العقل الباطن منذ مئات السنين . ويشير فيشته الى دفاع الشعب الشروسكي من اجل حريته (Freiheitskampf der Cherusker) . فيتساءل : لِمَ حارب الرومان ؟ ولِمَ دافع عن نفسه ؟ لقد قدمت اليه روما كل اسباب الرقي ، ولكن بقاءه المانيّاً كان عنده مفضلاً ومرجحاً فوق كل شيء . وهكذا احتفظ بطبيعته سليمة

ويرى فيشته ان هذه الظاهرة قد استبانت جلية في عهد الاصلاح ، وعلى الاخص في شخص « لوثر » . ولقد كان لوثر في كفاحه وعقيدته وفي تشبثاته وجميع احساساته المانيّاً صميماً . ثم استبان لغيره ما تجلى للوثر من تهاون بعض القساوسة وتضليل النفوس البشرية فتألبوا على الحزق بهم ، وكثيراً كثيراً في هجائهم . ولكن عزيمة لوثر كانت تنقصهم . وما كانوا ليدركوا سهولة تناول مسائل معينة من الناحية السياسية اذا ما تيسرت معالجتها من الناحية الدينية . وكان لهم بعد التحقق من ذلك فصل الخطاب . وهذا التحايل كما يقول فيشته هو من طبيعة الالمان . وكان لنجاحهم هذا صدى في البلاد لا يستهان به

وقد يصح القول بانهُ ليس من السهل إلهاب عواطف الالمان . ولكن هذه الحالة ترينا انهُ اذا ما مسّ فرد مصالحهم ، فسرعان ما تتأجج النار في نفوسهم

وان كان هذا كذلك ، فهل الالمان هم « شعب الله المختار » ؟

يقول فيشته في ذلك ان لكل شعب رسالته ، ورسالة الشعب الالماني تعني العالم اجمع ، اذ هي تتلخص في تحمل مسئولية تطور البشرية

ولهذا كان واجب المانيا المحافظة على جميع البلدان كما تحافظ على كيانها سواء بسواء ، وكان فرضاً عليها « ان تحمي فرنسا من نابليون . » — وهذا تفاوت آخر بين « وطنية » كل من فيشته وهتلر . فوطنية هتلر محلية ضيقة محدودة ، ووطنية فيشته عالمية غير محدودة

ولقد جعل فيشته وظيفة الامة الكفاح من اجل الحرية وتقويم البشرية ، وبهذا اشعر الناس بادماج مآربه الوطنية في المآرب الاجتماعية ، فكانت « اشتراكيته الوطنية » الممتازة .

يعتبر نيتشه [illegible] التي [illegible] ويرى هتلر [illegible] غاية في الصدق

ويجدر بنا ان نسأل الآن ما هي فلسفة نيتشه الحقيقية ؟ وماذا يقصد في [illegible] الحرية وتقويم البشرية ؟ وما هي [illegible] عنده ؟ وكيف [illegible] القوة عنده [illegible] ؟

لقد وجد نيتشه ان عصره كان ماديا بحتاً ، وان حب الذات هو [illegible] في كل الامور . فاحتقر تعاليم عصره في اسعاد النفس البشرية ، ولكنه لم يعرف لهذه الحالة علاجاً . ولم يوفق الى رأي يدحض به آراءهم ، ولا وسيلة يقضي بها على تعاليمهم . وامتزجت عواطفه وتحطم تفكيره . والادهى من ذلك انهُ عاون اعداء فكره ، اذ قال ان الانسان لا يسيء لقدمه ، وليس الذنب واقع عليه اذا أساء ، اذ البيئة المحيطة به هي التي تسوقهُ الى ذلك . فهو تابع لنظام ، « وهو اشبه ما يكون بكرة تلعب في يد الحياة » . واحسَّ نيتشه ان رأيه هذا ضعيف ، ولكنه على كل حال رأيٌ لا سبيل الى معارضته . وكل اعتراض عليه لم يكن سوى رغبة غير مسببة . ولقد كان نيتشه آخر من يخلط بين الرغبات والحقائق ، فلم يكن ليغفل يوماً عن الحقائق الثابتة ، بل كان الامر الواقع عندهُ في المقام الاول . وهكذا عاش تحت ضغط كابوس لا أمل بالتزحزح عنه . وما لبث ان عكف على فلسفة « كانت » فوجد فيها اثباتاً علميًّا قوي المنطق ، بعيداً عن العاطفة ، يؤيد حرية الناس . ولم يكن نيتشه ذلك المدرس المشرّد ، الغارق في آلامه ، البائس المحتاج ، القابع في خزي على أشياء تشعره العبودية ، — لا ، لم يكن هذا نيتشه بكامل ما في اعماق نفسه ، اذ ان وحي الخير في صميم نفسه كان يتفجر قويًّا ليقيهُ منذراً وبشيراً . وكانَّ هذا الوحي جاءه من العالم العلوي الذي تربطنا به صلات خفية مجهولة

هنا تنفس نيتشه الصعداء ، وزال عنه الكابوس اذ أدرك ان الانسان ليس بخاضع للاحوال والاشياء المحيطة به ، وان القدر لا قدرة له على تحطيم النفس البشرية مهما قسى وغلظ ، وان الارادة لا يمكن ان تذروها « الجبرية » مع الرياح . وما ذلك الا لان تلك الرغبة الطائشة ليست بصادرة عن ذاتنا الحقيقية . فقد تعمل الاحوال والاشياء المحيطة بنا على ارغامنا ولكنها لا ترغم من كانت له نفس حرة أبية خالصة من الانانية . ولا بدَّ لهذه النفس الابية من ان تعذب في الحياة . ولكن عندما تصبح قوة قائمة بذاتها يمكنها ان تكيف المصير كما تشاء وتهوى ، — وهي في عملها هذا لا تقوم الا بمسايرة التطور الحقيقي لسعادة البشرية . وهذه النفس الابية تعيش في ذاتها لذاتها ، اي انها تعيش للحرية مستقلة عما حولها . وهي في خدمتها للغير انما تخدم ذاتها وتحمي نفسها وتتوسع في حريتها

ومن ثمَّ شعر نيتشه بأنه يحيا في عالم جديد . ولا شك انه مدين في ذلك لـ « كانت » الذي انتزع منهُ تعاليم الانانية ، فلما تبينت له حقيقة النفس البشرية ، تأكد من وجود صدى

يتجاوب في اعماق نفس كل انسان ، ويجمع بين الاحساس وصوت الارادة . » والنفس الصادقة في حريتها ، لا تأبه لغير ما ينبعث عنها من أوامر ، ويمكنها ان تقر وتعترف بالاوامر المنبعثة اليها من صميمها ؟ ولقد كان « كانت » اول من أحيا في نفوس الالمان الايمان الصحيح والتوجه الى الاله دون غيره ، كما أثار فيهم النزعة الى الصوفية ، وجاء لوثر فحررهم من هذه النزعة ، الا انه عاد فاحياها ثانية في صورة اخرى . وهكذا تدرجوا من الانقياد الى التنافس في القيام بالواجب ، ومن مجرد قراءة ما في الكتاب المقدس الى وعيه في الصدور ، ومن الاعراض عن الرأي الصائب الى الاقبال عليه وجعله قانوناً

« ولكن اي فائدة من ذلك اذا كان وعي هذا كله قاصراً على فئة قليلة ؟ » — كما يقول فيشته في حين ان الاولى بالشعب كله او بغالبيته العظمى ان تعي هذه العقيدة ، بل تعيها وعياً يقتضاها

وانتهى فيشته الى الرأي بأن مهمته هي اتمام ما قام به (كانت) ، والعمل على تحقيقه . ولقد أدى عمله هذا بعزيمة اولي الحزم غير مقيد بحزب او متأثر بمديح ، مجرداً نفسه لخدمة الحقيقة المنبثقة من الحياة في اشكالها التي وضعها . ويؤكد فيشته ان طريقته ليست الا طريقة (كانت) نفسها ، وان اختلفت من حيث العرض . والواقع ان (تعاليم الحرية) كما ذكرها (كانت) هي عند فيشته اجل اعماله ، وهي لب مؤلفاته وروحها . وقد حمل فيشته لواءها مغتبطاً

ولكن كيف كان الرأي عند « كانت » ؟

ان الانسان عند ما يرى حقيقة نفسه يبدأ بالارتحال عن نفسيته الوضيعة التي لا تعرف الا الشهوات . ومن ثم يدرك ان عليه واجبات نحو نفسه : اي انه حينما تتكشف له طبيعته السامية يؤدي طوعاً ما عليه من واجبات . والواقع انه حينما تبدو لنا طبيعتنا غير كاملة نعمل حتماً على استكمالها ، لا لانا مطالبون بذلك ، بل ومجبرون عليه ، ما دمنا نستمع لصوت ضميرنا الدائم التردد

ويقول فيشته : (ليس عندي ما له ثبوت الابدية سوى شيئين : صوت ضميري ، واتباع وحي نفسي . بأولها يخضع لي عالم الفكر وانطوي عليه كجزء مني . وبالثاني اسمو في هذا العالم بروحي فأشرف على اسعاده)

وهذا وحده كاف لرؤية عظم الهوة التي تفصل ما بين فيشته وهتلر . وهذه الهوة هي الفارق بين الوطنية الاشتراكية كما وضعها فيشته ، وتتلخص في التوجه بالتطور البشري نحو الكمال ، وبين وطنية هتلر الاشتراكية التي تهزأ من ذلك . ففيشته يرى عدوه قابعاً في صميم نفسه ، فيريد لنفسه الكمال لا السكوت على التدليس . بينما يرى هتلر عدوه كما يراه الرجل الساذج ، غريباً عنه ، فيراه في الرومي والفرنسي واليهودي

واقصى ما يطمح اليه فيشته في ميدان السياسة هو توطيد نظام الجمهورية . فهو كما يقول ،

(... [illegible] لتحقيق [illegible] باسم مذهب [illegible] فقد [illegible] سياسياً في الدولة توريه — ان يوجهوا في أمر [illegible] [illegible] حديثهم [illegible] في [illegible] على طريق [illegible]

ولا شك أن [illegible] [illegible] [illegible] كانت تسوت من هتلر [illegible] أخص عند فيشته [illegible] [illegible] وهو [illegible] فيشته تنشد فيه النزعة العملية [illegible] هتلر تصدح فيه النزعة الحمية . ولا تتفق [illegible] الاجتماعية والاشتراكية التي [illegible] اليها فيشته مع تلك التي هتلر ، لان [illegible] لا ينظر الى هذه القواعد نظرة جدية . اما ما قيل عن الدولة التجارية المقفلة ، فأمرها لا يحتمل وجهاً للموازنة ، لان مثل هذا الرأي كان بعهد فيشته ممكن الوقوع ، اما اليوم فألمانيا ليست عضواً في أوربة الاقتصادية فحسب، بل هي كذلك عضو في العالم الاقتصادي . وهكذا كانت فكرة الدولة التجارية المقفلة لا معنى لها في عصرنا هذا

وكان فيشته يريد ولا شك الحرب ، وكذا يريدها هتلر . ولكن تباعد الزمن بينهما جعل المقابلة في حكم المستحيل . ومع ذلك فما كانت تتجه آمال فيشته يوماً في السلام . وكانت الحرب اذ ذاك مكافحة ومنازلة، وليست افناء للجيوش والشعوب كما هي الحال اليوم . وكانت الشجاعة والقوة والاصطبار ، وهي اسمى الصفات، عوامل الانتصار . اما اليوم فوسائل الانتصار هي التفوق في نوع العلوم الرياضية والكيماوية التي تسخر لقتل اكبر عدد من الناس . ولهذا كان الانتصار اليوم رهين من يكون اشد وحشية من غيره حتى النهاية غير ان الخراب المحقق هو نهاية الحروب اليوم

ويقول فيشته : « يجب ان لا تنتصروا على اعدائكم بأسلحة قتالة ، بل يجب ان تغلبوا عليهم بافكاركم » وكان فيشته صريحاً في تطبيق هذا المذهب ، اذ رأى ان التربية الصحيحة اسمى من الكفاح بالحديد والنار . ولهتلر كذلك حديث عن التربية ، ولكن ما اشد الفارق بين الاثنين . فتربية الخلق عند هتلر تقع في المنزلة الثانية . يؤيد ذلك بيانه الذي جاء فيه (ان الحياة الخاصة لاتباعي امر لا يعنيني) . اما ابطال الضرب بالعصي الحديدية والطعن بالمدى ، فأهل لان يحتفى بهم كزبدة الشعب الالماني . ويكفي ان يقول فيشته (بوجوب خلق الناس خلقاً جديداً قبل ان يتولوا العمل السياسي) لنرى فيه نقيضاً لهتلر

وليس أصلح لختام هذا البحث من كلمة قالها الاديب العالمي توماس مان (Thomas Mann) في ندائه (الى اولي الالباب !) أكد فيه (عدم امكان الجمع بين نبل الفكر والنعرة الاشتراكية الوطنية الهتلرية التي اذا ما أزيل عنها الستار فظهرت عارية ، انكشفت عن انطلاق همجية من عقالها)

مراجع البحث :—

I.) Friedrich Franz von Unruh : Fichte und der Nationalsozialismus
II.) Adolf Hitler : Mein Kampf.
III.) Prof. Jonas Cohn: Fuerende Denker
IV.) Prof. Paul Deussen: Geschichte der Philosophie

السمك الراعي عن مجلة التاريخ الطبيعي الامريكية